

عثر به وعثرت عليه

للأستاذ محمد مندور

لم يكن في عزمي أن أرد على زكريا أفندي إبراهيم لأن المناقشة لم تكن بيني وبينه ، وإنما فعلت لأنني رأيت قد أثار مسألتين حسبت في إيضاحهما فائدة لعامة القراء وقد اعتمدت في تأييد استمالي « لعثرت ب » على مبادئ لغوية عامة لم يقتصر العلم بها على الباحثين في علم اللسان بل سبقهم إليها ولحقهم الفلاسفة وكافة المفكرين . فاللغات كما قلت مجازات مبيتة في في الكثير من مفرداتها ، فنحن عندما نقول بالفرنسية مثلاً abimer بمعنى « أتلغ » نستعمل مجازاً ميتاً لم يعد يحس به أحد ، وذلك لأن معنى هذا الفعل الاشتقائي في اللغة الفرنسية هو « يلتقي في هاوية » (هاوية : abime) ، وكذلك الأمر في اللغة العربية ، فالرفعة والسمو والانحطاط مثلاً كل هذه الألفاظ كانت معانيها الأولى حسية ، ثم ماتت تلك المعاني وأصبحنا نستعمل تلك الألفاظ في الدلالة على الصفات المنبوية المعروفة ، وهكذا مما لا حصر له في كافة اللغات . ولقد كانت هذه الحقيقة من الأسس التي بنى عليها الفلاسفة الإنجليز أصحاب المذهب الحسي في المعرفة ومنايها مذهبهم ، إذ لاحظوا أن معظم ألفاظ اللغة كانت في الأصل تدل على معان تدركها الحواس ثم انتقلت إلى المنويات وعلى هذا يتضح لنا أن عثر في معناها الأصلي لم تكن تفيد الاطلاع مصادفة أو من بحث في شيء ، وإنما أفادت هذين المعنيين تجوزاً ، وحروف الجر في كافة اللغات من أدوات نقل المعنى ، ومن ثم فعندما نقول عثرت ، أو عثر على ، يجب أن نحدد الفارقات بين الاستماليين تبعاً للدلالة حرفي جر ومنحاحها في نقل المعنى . والذي لا أشك فيه أننا نقول « عثر الجواد بجحر » ونكون بذلك في حدود المعنى الحقيقي بحيث إذا تجوزنا أو قلنا عثرت بفكرة نكون أقرب ما يكون إلى مضمون المعنى الحقيقي أيضاً . ومن الواضح أن في ذلك المعنى ما يدل على المصادفة لأن الجواد لا يبحث عن جحر ليعثر به . وأما عندما نقول عثرت على فكرة ، فالجس اللغوي يبصرنا بأننا هنا قد بعدنا عن المعنى الحقيقي

وما يحمل من دلالة المصادفة لأنه على الأقل يتضمن المشور بالفكرة ثم الوقوع عليها ، وليس من الضروري أن نعثر بالشئ ثم تقع عليه إذ قد يفلت منا ؛ فالمشور على الشئ فيه معنى إيجابي هو ما أحسست ولا أزال أحس فيه بمدلول البحث

وأياً ما يكون الأمر فأنا بعد لا أرى مانعاً مادام المجاز قد مات في عثر وأصبح الفعل يدل على الاطلاع في الاستماليين من من أن قصد « يعثر ب » إلى الاطلاع مصادفة و « عثر على » إلى الاطلاع عن بحث . واللغة ، كما قلت ، كائن من الواجب أن نغذيه باستمرار بأن ننوع من طرق الأداء فيها كما نحدد من تلك الطرق على نحو ما نشاهد في لغات الأمم المتحضرة كلها هذا رأي أقف عنده لأن الأصول العامة تكفي لتأييده .

ومع ذلك فقد حمل إلى البريد هذا الصباح خطاباً من صديقي عبد الرحمن بدوي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ؛ وها أنا أنسخ لكم خطابه . قال بعد المقدمة :

« أود أن ألفت نظرك إلى تقط لعل بمدك من المصادر هو الذي حال بينك وبين التنبه إليها وفيها تأييد لما قوله فيما حصل بالتعبير « عثر به »

وأولى هذه التقط خيانة زكريا إبراهيم (وهو من تلاميذي الآن بالسنة الثالثة قسم الفلسفة) لنص (لين) إذ هو بتامه يؤيد استعمال « عثر به » بمعنى اطلع عليه فهو يقول مانعه :
knew it; accidentally, or without seeking;
(T. A)

[(وأشرس (see an ex. voce) وعثر به no nd]
معجم لين Lane ص ١٩٥٢ عمود (١) ص ٤ ، ٣ من أسفل .
وتحت مادة « أشرس » يذكر الشاهد الثاني : عَثَرَ
بأشرس الدهر (أمثال الميداني الطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣١٠
ج ١ ص ٣١٣ من ١ - ٢)

وثاني هذه التقط أن « عثر على » بمعنى الاطلاع مصادفة وبلا طلب ليس متفقاً عليها بين اللغويين والمفسرين . فالذي يوردها صراحة من بين اللغويين الراغب الأصفهاني في « مفرداته » « تاج العروس » للزبيدي (وهو الذي يشير إليه لين هنا في الإشارة T. A) وغالب المفسرين عند كلامهم على الآية « وكذلك أهدرنا عليهم » والآية « فإذا عثر على أيهما استحقنا إنما » يقولون

« عبر بمجمعهم اتفاقاً » (تاريخ ابن خلدون طبعة دى سلان . الجزائر سنة ١٨٤٧ ج ٢ ص ٣٤٢ ص ١٠ - وراجع دوزى : ملحق المعاجم العربية تحت مادة عثر ج ٢ ص ٩٥ عمود ١ - الطبعة الثانية سنة ١٩٢٧) « عبر الرسمى بروى ... انتهى خطاب الأستاذ عن هذه المسألة .

وإذن فأنت ترى - كرئيس محرر مجلة محترمة - ولا شك يرى معك القراء أنني لست ميجارياً في حاجتى كما وصفنى تلميذنا زكريا ابراهيم ونحن لا ريب نفتتح صدورنا لنقد تلاميذنا ، بل وأقول غلصاً إننا نفرح به ونحشم عليه ، ولكن على أن يكون فى حدود اللياقة ؛ بل وخير من ذلك أن يكون فى حدود الحقيقة والعلم الصحيح ، وذلك لأننى لا أرى سفسطة فى دفاعى عن عثرت به التى أفادت المعنى الذى أردت العبارة عنه مع عدم خروجها من أصول اللغات عامة بما فيها لغتنا

وإن كان هناك شيء أنكره من زكريا ابراهيم ، فهو عدم الأمانة العلمية ، لأن اليوم الذى نرى فيه طلبتنا يتصرفون فى نص لى يجاجوا أستاذهم محاجة فى هذا العناد اعتبره يوم فشل لكل مجهوداتنا العلمية ويوم حزن لى لا يعرف مداه إلا الله

إنها لا تدل على الاطلاع مصادفة . فانقرطبى يقول : (الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٣٥٨ طبع دار الكتب سنة ١٩٣٨) « ومنه قوله تعالى : (وكذلك أعرنا عليهم) لأنهم كانوا يطلبونهم وقد خفى عليهم موضعهم » أى الناس الذين كانوا يبحثون عن أهل الكهف . ويرجح رأى هؤلاء أن الآية « فإذا عثر على أنهما استحقا إنما » بقصد منها كما يقول الرازى (ج ٣ ص ٤٧٨ الطبعة الماصرة الشرقية . الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨ بالقاهرة) . « فإن حصل العثور والوقوف على أنهما (أى الأمينين على الوصية التى يوصى بها من بات بأرض ليس فيها مسلم) أتيا بخيانة واستحقاق الإثم بسبب اليمين الكاذبة ، أى أن المعنى هو « فإن وجد أنهما ... » وإلا فلا يصح حكم الآية إن وجد بعد التحقيق أنهما خانا . وهذا ما لا يمكن أن يكون القرآن قد قصده . وفيما يتصل بآية أهل الكهف « وكذلك أعرنا عليهم » فالقصد هنا من الله واضح لأنه قصد أن يدل بعض الناس على وجود أهل الكهف فليس هنا مصادفة إذن .

ويؤيد كلامك أرشمورك بوجود معنى المصادفة فى « عثر به » أكثر مما هو فى « عثر عليه » أن الأصل فى « عثر عليه » هو « أن العائر إنما يثر بشيء كان لا يراه ، فلما عثر به اطلع عليه ونظر ما هو ، فقيل لكل من اطلع على أمر كان خفياً عليه قد عثر عليه » (الرازى فى الموضع نفسه) ، فثر به هى الأصل ، وعثر عليه هى المجاز ؛ وعثر فيها معنى المصادفة من أصلها فما هو أقرب إلى الأصل وهو عثر به يكون معنى المصادفة فيه أقوى

وتقطعة ثالثة هى أنك لست أول من استعملها بهذا المعنى فقد وجدت أنها استعملت صراراً من قبل . أذكر منها الآن ما يلى إلى جانب ما أورده لين فى المثل : « عثر بأشرس الدهر » (١) استعملها ابن هانى الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ حين قال :

منعوك من سنة الكرى وسروا فلو

عثروا بطيف طارق ظنوك

(راجع ديوان ابن هانى تصحيح الدكتور زاهد على .

مطبعة المعارف سنة ١٣٥٢ هـ ص ٥٣١)

(ب) واستعملها ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ حين قال :

حكم فى القضية ١٤٠٥ عسكرية النيا سنة ١٩٤٢ . مجلة ٤ - ١١ سنة ١٩٤٢ بحسب محمد عبد النى الديكى جزار أربعة شهور مع الشغل وغلق المحل ستة أيام وذلك ليمه فلماً باكتر من التسعيرة

حكم فى القضية ١٤٣٣ عسكرية النيا سنة ١٩٤٢ . مجلة ٤ - ١١ سنة ١٩٤٢ بحسب كل من حسن سيف ومحمد محمود جمه بقالب بالاختصاص ثلاثة شهور شغل وجلد كل منها ٢٠ جلده ليمها سكرأ بازيد من التسعيرة

حكم فى القضية ٦٩٦ عسكرية النيا سنة ١٩٤٢ بتفرم محمد عثمان تاجر بالنيا عشرة جنهيات بمجلة ١٠ - ٦ - ٩٤٢ لامتناعه عن بيع آتف بالسعر القانونى

حكم فى القضية ٤٣٨ عسكرية النيا سنة ١٩٤٢ بتفرم مختايل عبد الملاك يهوب تاجر بالنيا عشرة جنهيات والتقى لمدة خمسة أيام بمجلة ٢٤ - ٦ - ٩٤٢ ليمه قاش دبلان بازيد من التسعيرة

حكم فى اللجنة العسكرية ٨٠٧ النيا سنة ١٩٤٢ بحسب كل من ابراهيم جبرائيل وجرجس مختايل بثلاثة شهور بالشغل والتقى خمسة أيام لميازتها شايا وسكرأ ازيد من اللقادر التى سمعت تجارتها ولم يبلغا من هذه الركبة وامتنا من ريمها لجمهور بمجلة ٢٤ - ٦ - ٩٤٢